أخلاقيّات الإحسان إلى الغير

فايز أبي عبّاس *

انطلاقاً من القاعدة القرآنيّة التي ينبسط عليها البناء المعرفيّ الإسلاميّ، ينهض مبدأ الإحسان إلى الغير كَرُكنٍ تأسيسيٍّ في ذلك البناء. ولكي نرى إلى هذا المبدأ والكيفيّة التي يظهر من خلالها، من المفيد أن نجري إطلالة إجماليّة على جداليّات العلاقة بين الأنا والآخر، كما نجدها في إطار التداول الفكريّ المعاصر. ويمكن القول إنّ هذه العلاقة تتّخذ في السياق العامّ ثلاثة أشكال، ينكشف عنها الجدل الحاصل على النحو التالي:

أوّلاً: علاقة الاستئثار أو المصلحة: وهي تقوم على حبّ الأخذ والعطاء في إطار ما تحدّده مصالح وأغراض كلّ من الطرفين. وأمّا حاصل هذه العلاقة، فإنّه يُفضي إلى خللٍ أكيد، من نتائجه إلحاق الظلم والأذى بأحدهما أو بكليهما معاً، وتلك علاقة مذمومة.

ثانياً: علاقة المبادلة والمعادلة: وهي التي يتمّ فيها تحرّي المساواة والعدل بين الحقوق والواجبات، وهذه لا ممدوحة ولا مذمومة، لأنّها محكومة بشروط توازي القوّة والقُدرة والرّدع، وهي تبقى كذلك ما دامت على مبدأ التّوازُن.

ثالثاً: علاقة الإيثار: أي التي ينطلق صاحبها والعامل في سبيلها من قاعدة التلازم بين حقّ الله وحقّ الخلق. وإنّ بلوغ رضى الحقّ تعالى لن يتحقّق إلّا من طريق محبّة خلقه ورعايتهم والعناية بهم بلا منّة، وباعتبار هذه المحبّة والعناية حقّ لهم عليه. وعلاقة الإيثار هي التي ترشد إليها الأسوة النبويّة الحسنة، وقوامها: حبّ العطاء والعفو والصَّفح، وليس مُجَرَّد الأخذ.

والقرآن الكريم لا يقف عند سقف الحضّ على العدل في المعاملات، فالعدل كأساس للعلاقة بين البشر له مقامان:

مقام المعاملة، وهو مجال العفو والمسامحة والفضل .

مقام الحكم، وهو وحده الذي يصير فيه العدل فريضة مكتوبة؛ ذلك لأنّ الحكم إذا تجاوز العدل الدّقيق الصّارم، فإنّه كَمَن يتصرّف في حقّ غيره من دون إذنه، لا في حقّ نفسه، وذاك هو الظلم بعينه.

في المقابل، يُلزم القرآن الكريم (الأنا الإنسان) بعلاقة اتّجاه الآخر (الغير) قائمة – في باب الحق – على أنّ لغير المسلم ما للمسلم، وعليه ما عليه، وضرورة طاعة المسلم لله ولرسوله في معاملة الغير.

ولعلَّ من أهمّ أبعاد تلك العلاقات: تأدية الأمانات إلى أهلها، والحكم بالعدل، وطاعة الله ورسوله وأولي الأمر من المؤمنين، وردّ التنازع إلى الله ورسوله، والشفاعة وردّ التحيّة بأحسن منها أو مثلها، والإنفاق ما أفضل ما لديهم لنيل البرّ في كلّ الأحوال، وكظم الغيظ، والعفو عن النّاس، والقوامة بالقسط، وتجنّب الولاية لِمن يُحادُّونَ اللهَ ورسولَه، وعدم تتبُّع العورات.

ومن الهدي النبويّ، أنّ منافقاً كان رأساً من أصحابه تاب وجاء إلى النبيّ ليستغفر له ثُمَّ قال ذلك الرَّجُل: إنّ له أصحاباً منافقين، فهل يأذن له النّبي بالكشف عنهم والإتيان بهم فقال صلّى الله عليه وآله: «مَن أتانا استغفرنا له، ومن أسرّ فالله أولى به، ولا تخرُقنَّ على أحدٍ ستراً».

ولعلّ من أهمّ الضوابط التي حدّدها القرآن الكريم لما ينبغي أن تكون عليه علاقة المسلم مع أهل الكتاب: دعوتهم إلى كلمة سَواء بين الأُمّة الإسلاميّة وبينهم. كلمة مبنيّة على الإنصاف، وترك الجدل، ولم يختلف عليها الرُّسُل.

ولُبّ الإحسان إلى أهل الكتاب، هو دعوتهم إلى الكلمة السواء المسبوقة بكلمة (تعالوا) المتضمّنة دعوتهُم إلى ما دعاهم الله عليه والنظر فيه، وفحواه: التوحيد، بحيثُ لا يرون أحداً غيرَهُ أهلاً أن يُعبَد، ويُقرّون بالتسوية بينهُم وبين البشر، وبمسؤوليّتهم شأنهم شأن غيرهم سواء بسواء. ولعلّ جوهر تلك الكلمة السواء هو الالتزام بالنّواهي والأوامر المتضمّنة في الوصايا العشر، التي جاء بها كلُّ الرُّسُل إلى كلّ الأُمم وهي:

النّواهي: الشرك بالله، قتل الأولاد، مقاربة الفواحش الظاهرة أو الباطنة، قتل النّفس الّتي حرّم الله قتلها، الاقتراب من مال اليتيم إلّا بالّتي هي أحسن.

الأوامر: الإحسان والبرّ بالوالدين، توفية الكيل والميزان بالقسط، العدل في القول، اتّباع الصراط المستقيم، وعدم اتباع السّبُل المفرّقة عنهُم.

فالكلمة السّواء هي علاقة مطلوبة مع الله قوامها التّوحيد، ومع النّفس ومع النّاس قوامُها العدل والإحسان.

* باحث وكاتب– لبنان